افكار للمناقشة

الكاتب لا يغيّر المجتمع

بقلم عبد الله القصيمي

مع الاعتذار الى جميع الكتاب المؤمنين بتأثيرهم الخلاق !

كتب احد الكبار من كتّاب العرب الاحرار يقول :

« ان قاسم امين قد غيّر المجتمع المصري بكتابه المشهور عن المرأة لانه هو الذي جعلها تفك الطلسم بالسحر الرهيب ... ! »

ولكن هل صحيح هذا ؟ هل صحيح ان التغيرات تحدث بسبب واحد مباشر ـ وهل صحيح ان كتابا ما قد يغير المجتمع ؟

واذا كان هذا صحيحا ، افليس من المستطاع حينئذ ان نغير كل خصائص المجتمعات ونغير أخلاق الناس بعدة كتب يؤلفها عدة كتاب حتى ولو كانوا كتابامستعارين ـ وهل الامر بهذه السهولة؟

اننا لا نستطيع ان نصنع اخلاق المجتمع بكتاب ، كذلك لا نستطيع تغييرها بكتاب ..!

واذا كان من غير الممكن ان نجعل الاحداث الطبيعية تقع او تتغير بان نطلب اليها ذلك ، فكذلك لا يمكن ان نجعل اوضاع المجتمع تتغير بمثل هذا الطلب . وبقدر ما يستحيل ان تحدث ظاهرة كونية بسبب واحد مباشر يستحيل ايضا حدوث تغييرات اجتماعية بسبب واحد مباشر .. وهل يصح القول بالسبب الواحد المباشر ؟

ان سلوك المجتمع كالحادث الطبيعي : كلاهما تعبير نهائي لتوفر حشود من الاسباب ، وجميع التغيرات في المجتمع مركبة ليس فيها بسيط ، والايمان بسبب واحد انكار للاسباب ...

*

وما حدث للمرأة المصرية بل وللمرأة العربية في كل اوطان العرب لم يكن بد من حدوثه حتى ولو لم يوجد كتاب قاسم امين بل ولو لم يوجد قاسم امين نفسه !

لقد حدثت تغيرات كثيرة في المجتمع المصري والعربي وفي الحياة المصرية والحياة العربية ، لان ظروفا ما جديدة قد حدثت ، لا لان كتابا او كتبا قد ألفت ونشرت... وبالاسباب التي تغيرت بها الحياة واساليبها تغير سلوك المرأة ايضا ...

والمرأة التي تحررت ليست هي المرأة التي قرأت كتاب قاسم امين ـ بل هي امرأة اخرى ـ امرأة وجدت نفسها امام ظروف لا بد ان تصنع منها كائنا جديداً .. لقد خرج كتاب «تحرير المرأة » فلم تتحرر المرأة لان الظروف لم تكن قد تهيأت بعد، ثم تحررت بعد ان نسي الكتاب واصبح ذكرى يتحدث عنها المؤرخون في بعض السطور مما يكتبون او فوق مكاتبهم ..

حينما نشرت افكار قاسم امين لم يكن من الممكن ان تتأثر بها المرأة لانه لم يكن ممكنا ان تقرأها او تفهمها لانها لم تكن فاهمة ولا قارئة .. ولم يكن من الممكن ان يحملها مجتمعها على التأثر بها ، او يحملها اقربوها لانهم لم يكونوا مؤمنين بتلك الافكار او على الاقل لم يكونوا مبشرين بها في نسائهم بل لم يكونوا قارئين لها .. والمرأة المصرية والعربية حتى اليوم تصر على رفض الاستجابة لدعوات كثيرة متواصلة تحثها على التخلي عن اخطائها السلوكية والروحية الاخرى الكثيرة : فهي تقيم الحفلات للزار وتصدق الدجالين وتعطيهم مالها وايمانها ، وتذهب الى المقابر تطلب منها النجدة والعون وحل المشكلات .. وتصنع كل ما كانت جداتها يصنعن في شؤون الزواج وتربية الاولاد وتخويفهم من الحياة ومن الاشباح والظلام ، وفي معاملة الازواج والاخرين وتفسيرهم .. وتعتقد مثل جداتها وتشعر بمشاعرهن الرديئة المتخلفة ..

ولم تستطع تلك الدعوات والتحذيرات التي كان بعضها رسميا ان تغير افكارها او عواطفها او سلوكها ، لان الاوضاع التي تحياها لا تكفي لحدوث مثل هذا التغيير ، لا لانه لم يوجد قاسم امين آخر يدعوها الى ذلك !

ولقد دعا كتاب « تحرير المرأة » الى اشياء كثيرة لم تأخذ بها المرأة او تتأثر حتى اليوم لانها في الحقيقة لا تأخذ حياتها المتحررة عن هذا الكتاب ، بل تأخذها عن الحياة نفسها ..

من المحتوم ان قاسم امين لو كان ضد المرأة فوضع كتابا يقاوم حريتها بدل كتابه في حريتها لكان الناتج الاجتماعي هو هو بلا تغيير . فالمرأة متحررة او سافرة او عاملة مع رجلها في الريف وفي البادية وفي بعض البيئات المتأخرة جدا دون ان تشعر بوجود قاسم امين او بوجود غيره من دعاة التحرير ..

الناس لا يفعلون الشيء لانهم قد دعوا اليه او برر لهم فعله ، ولكنهم يفعلونه حينما يجدون انفسهم ملزمين بفعله

... والانسان لا يفعل الا مشاعره ـ يفعل مشاعره لا فكره
... والفكر قد يكون معزولا عزلا تاما عن تصرفاتنا ..

ان اقواما كثيرين يرون حرية المرأة جريمة كبرى ومع هذا يباركون نساءهم اذا فعلن هذه الجريمة بل ويغضبون ويحسون بالصغار والدونية والامتعاض لو لم يفعلنها . والذين يغيرون افكارهم في هذه القضية يغيرونها لانهم وجدوا انهم لا بد ان يغيروا سلوكهم . فالاحتياج الى السلوك الجديد هو الذي يصنع الاحتياج الى التفكير الجديد !.

وكذلك يؤمن اقوام آخرون بحرية المرأة وقد يدعون اليها ولكنهم لا يستطيعون ان يحولوا ايمانهم الى سلوك لان الاوضاع التي يعيشون فيها لا تتحمل مثل هذه الشجاعة ! والمجتمع قدرة على التحرك لا على التفكير ...!

ماذا لو ان رجلا من اهل اليمن الف كتابا يدعو فيه الى ما دعا اليه قاسم امين ثم نشره في بلده في الوقت الذي نشر فيه قاسم امين كتابه ؟ هل يمكن القول بانه لو حدث مثل هذا لكانت المرأة اليمنية قد بلغت الطور الذي بلغته المرأة المصرية مع بقاء ظروف اليمن كلها في مكانها ؟

لقد صدر كتاب قاسم امين في مصر وقرأه قوم في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي البلدان العربية الاخرى فهل جاءت النتيجة واحدة ، وهل اتخذت المرأة موقفا واحدا في كل هذه البلدان ؟

*

ان الظروف والضرورات هي التي تصنع سلوكنا بل وتصنع اتجاهاتنا الفكرية والروحية ورغبتنا في الاصلاح.. والضرورة ما هي التي خلقت دعوة قاسم امين ، وليست دعوته هي التي خلقت تلك الضرورة . ودعوته وحرية المرأة كلتاهما مظهر لاحتياج، وليس الاحتياج او الاستجابة مظهرا لهما . والضرورة التي صنعت سلوك المرأة هي نفس الضرورة التي صنعت دعوة قاسم امين : كلتاهما نتيجة ...

متى يقتنع المجتمع بالفكرة ومتى يحولها سلوكا ؟

ان الناس لا يقتنعون بالفكرة لان تلك الفكرة صحيحة بل لان ظروف الاقتناع ـ قد وجدت ـ وهم لا يحولون الفكرة التي اقتنعوا بها الى سلوك الا اذا كان مستطاعا تحويلها لا كلما اقتنعوا بها .. فالفكرة قد تكون صحيحة جدا ولكننا لا نقتنع بها لاننا لا نستطيع الاقتناع ، وقد نقتنع بها جدا ثم لا نحولها الى سلوك لاننا لا نستطيع تحويلها ..!

وتحركاتنا ليست خاضعة دائما لافكارنا ولا مقترنة بها. فالتحركات التي هي الصور الاجتماعية هي اشياء زائدة على الافكار وعلى الايمان . وقد نتحرك تحركات لم يتدخل فيها الايمان او التفكير . وتغير المجتمع هو مجهود كبير فوق الاقتناع واقوى من البراهين العقلية ...

فاذا كانت دعوة قاسم امين قد استطاعت ان تقنع بعض الناس او تقنعهم كلهم فما الذي جعلهم يريدون ويستطيعون تحويلها الى ظاهرة اجتماعية مع ان الفكرة ليست حركة ؟

والذي يحدث ان الناس يفعلون الشيء او يحتاجون الى فعله ثم يذهبون بعد ذلك يبررونه تبريرا فكريا . وهم لا يفعلونه لانهم وجدوا له مبررات فكرية . وهذا هو ما حدث في موضوع المرأة وحريتها . لقد تجمعت الضرورات والامكانيات التي حتمت على المجتمع وعلى المرأة سلوكها الجديد . فاستجاب المجتمع واستجابت المرأة ثم ذهبوا يبحثون عن تلك المبررات الادبية ..

ان اقوى كتاب قد يغير افكارنا او افكار طائفة ممتازة منا ثم يستمر هذا التغيير الفكري يتزايد بين جميع وحدات المجتمع او بين وحدات الطائفة الممتازة وحدها .. ولكن متى تصبح هذه الافكار المغيرة عملا من اعمال المجتمع ؟ تلك مسألة اخرى ..

ان الكتب المقدسة التي يؤمن بها الناس اقوى ايمان لم يمكن ان تتحول تعاليمها الى سلوك للذين يؤمنون بها .. فلماذا ؟

*

ليس المجتمع قطعة من النيازك تتنقل بقانون الحركة ، وانما هو مجموعة ضخمة من الاحتياج والشعور والخوف والشجاعة والجبن والعقيدة والقدرة والعجز والمصلحة والتقاليد .. وتغيير المجتمع ـ بل وتغيير اية ظاهرة اجتماعية ـ معناه تحريك هذه المجموعة كلها . وكيف يمكن ان يتحرك هذا الجهاز كله ويتوافق في حركته ليخلق وضعا حركيا معينا ؟ هذه عملية مركبة ..

اننا حينما نغير وضعا اجتماعيا لا نغير وضعا فكريا فحسب ، ولسنا نخاطب المنطق وحده . وما المنطق في عمليات المجتمع الا اضعف ما يحتاج اليه وما يؤثر فيه . والذي يخاطب المجتمعات بالعقل وحده ليحدث فيها صورا جديدة يفعل شيئا مؤسفا ..!

المجتمع مكان وحاجة واستعداد وقدرة وتكيف وتركيب ... هل نستطيع ان نصنع من كل انسان متسلقا للجبال؟ وهل يمكن ان نخلق مغامرا او عبقريا في كل وقت وفي كل ظرف وكل مجتمع ؟ وهل نستطيع ذلك بالدعوة والتفكير ؟

كم من المفكرين والمصلحين الذين اعطوا افكارا وفلسفات ومذاهب ثم مروا في الطريق العام من غير ان تسير وراءهم الجموع او يحدثوا اية صدوع في بناء مجتمعهم ..! وكم من سقراط ومسيح هبت المجتمعات تريد قتلهم بدل ان يستطيعوا تغييرها ..!

ارسل الامطار واطلق الفيضانات وستجد ان تأثيرها يجيء مختلفا ايضا لاختلاف الظروف والصفات !

ان تلقي الكتاب الواحد في مجتمعين مختلفين لا يكون في درجة واحدة .. الادلة العقلية لا تستطيع ان تقنع الناس فكيف تغيرهم ؟

اقصد الى من يخالفك في الرأي والعقيدة واجمع كل نفسك وكل موهبتك ، واستعن بجميع من يرون رأيك وبما يملكون من قدرة منطقية ، واحشد معك كل ما قاله الاقدمون

وما عرفوه وصاغوه من براهين ..

ثم اجعل من كل ذلك أسلحة ماضية تدمر بها حصون مخالفك او شموسا تكشف بها وجوه الضعف والخطأ في آرائه وعقائده .. وتوقع كيف ستكون النتيجة ...

لو كان ممكنا ان يغير المنطق افكار الناس وعقائدهم وسلوكهم لكان ممكنا اخراج اهل الاديان والفلسفات والمذاهب من اديانهم ومذاهبهم وفلسفاتهم كلما قدم لهم منطق اقوى من منطقهم او قدم لهم منطق خداع ..!

.. بل كلما كانت حججنا اقوى كانت ابعد عن الاقناع ، لاننا كلما تفوقنا على خصومنا أثرنا حقدهم وخوفهم بدل ان نظفر باقتناعهم . ونحن نقنع الاخرين باظهار تفوقهم علينا اكثر مما نقنعهم باظهار تفوقنا عليهم ! والذين اقنعوا غيرهم لم يقنعوهم بالمنطق بل بالتأثير النفسي .. واصحاب الرسالات الكبيرة الذين اثروا في المجتمعات تأثيرا كبيرا انما أثروا فيها لانهم كانوا يتجنبون محاولة الاقناع بالبرهان ـ يحاولون تجنب اصطدام المنطق بالمنطق ـ اصطدام الايمان بالايمان ..!

ان الناس يقتنعون ويتغيرون تحت وقع الظروف والضرورات . وهذه الظروف والضرورات هي التي تغير منطقهم بقدر ما تغير حياتهم !..

والكتاب يقدرون أنفسهم تقديرا هو فوق الحقيقة حينما يزعمون انهم هم الذين يغيرون المجتمعات .. حتى المعتقدات والمذاهب والفلسفات التي توجه الجماهير ليست من صنع الكتاب والمفكرين ..

المفكرون والكتاب ادوات يعملها المجتمع ويعمل بها ، وليسوا الات تصنع المجتمع .

وقد اعطت المجتمعات الكتاب افكارهم وفلسفاتهم اكثر مما اعطوها هم عقائدها ومذاهبها وايمانها !

*

لماذا نفكر وتتغير افكارنا ؟

الافكار لا تخلق نفسها ولا تغير نفسها . والعملية الفكرية ليست الا مظهرا لحالة ما . والفكر ليس خالقا بل هو مشرف على اعمال الخلق !

واذا لم توجد هذه الحالة التي تجعل التفكير الجديد حاجة لم يكن ممكنا ان يوجد ذلك التفكير ولو وجد لما غير وضعا موجودا ...

اذن كيف ومتى نتغير في تفكيرنا ؟

اذا تغيرت احاسيسنا تغيرت افكارنا او اصبح تغيرها احتياجا واحتمالا جيدا . فتغير التفكير هو دائما علامة على شيء ...

واحاسيسنا تتغير حينما يشتد التناقض بين ما نريد وبين ما نجد ـ حينما يشتد التناقض بين الشعور والاوضاع. فالحالة الفكرية مسبوقة دائما بحالة شعورية ، والحالة الشعورية مسبوقة بحالة تصادم بين كائن ووضعه . وحالتا الشعور والتصادم تؤديان الى تغيرات محتومة منها تغير التفكير نفسه !

والتبدلات الكبرى التي قفزت بوجود الانسان واعطته حضاراته القوية لا يصح ان تؤرخ تأريخا فكريا ـ لا يصح ان تؤرخ بوجود جماعات من المفكرين والكتاب الافذاذ الا على تقدير ان هؤلاء الافذاذ علامات كبيرة تشير الى الحقيقة التي هي اكبر منهم ..

ان تحركات البشر لا تنطلق عن الفكر ولكن الفكر ينطلق عن تحركاتهم .. المجتمعات لا تفكر فتعمل بل تعمل وتريد العمل ثم تفكر .. الفكر دائما منبثق عن ارادة الفكر ... الارادة توجد الفكر، والفكر لا يوجد الارادة.. وارادة واحدة من ارادات المجتمع تصنع ما لا يمكن ان تصنعه جميع افكار المفكرين .. والكتاب انما صنعتهم ارادة المجتمع ، اما هم فلا يستطيعون ان يصنعوا ارادته !

الكاتب يكتب بعض احاسيس الجماعة وارادتها فيرضى عن نفسه ويذهب يظن انه خالق عظيم والحقيقة انه مخلوق! احاسيس المجتمع اقوى خلقا من اعظم الاقلام .. والذي يحس الشيء اعظم من الذي يكتبه ! والذي يغرز مسمارا في مكان الحاجة اليه اقوى خلقا من الذي يحسن التحدث عن ذلك الاحتياج ..

*

الكتّاب ظاهرة يخلقها المجتمع كالتجار والعمال وسائر اصحاب الحرف وليسوا اسبابا اولى خالقة في المجتمعات.

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الاربع الاولى من الآداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٤٥ ل.ل	٥٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «

وهم لا يريدون بما يكتبون ان يغيروا اوضاعا فاسدة ، وانما يريدون ان يجدوا موضوعات دائمة يغارون عليها ويكتبون فيها !.. لهذا لا ينتظر منهم ان يرحبوا بزوال الالام والاخطاء والعداوات من العالم لان زوالها يفوت عليهم ان يكونوا مصلحين ومعالجين وأصحاب غيرة !

ان احتياج الكاتب الى وجود الفساد والخطأ كاحتياج الطبيب الى وجود المرضى !

*

هل يمكن ان تتغير حياة الناس من غير كتّاب ؟

اعتقد : نعم . فالحياة كلها تتغير بقوانينها . وقد ظلت حياة الانسان تتطور حتى بلغت عهدها الذي يصنع الكتاب ...

اذا رصدنا محصول البشر من الكتاب وجدنا فريقين : فريقا يدعو الى الرجعية والمحافظة على ما هو موجود ويحارب التطور، والفريق الاخر يبشر بعهد جديد. ودائما نجد الفريق الاول اكثر واقوى ، واسباب هذا معروفة . .

ولكن البشر مع وقوعهم بين هاتين القوتين غير المتكافئتين يظلون يسيرون في طريق التقدم .

لو كان الكتاب هم الذين يؤثرون فيهم لكان المفروض ان يكون تأثير دعاة الوقوف اقوى من تأثير دعاة التقدم ..

انهم يستجيبون للدعوات الحافزة لانهم في الحقيقة يستجيبون لحوافز حياتهم ..

واذا كان الكتاب التقدميون يعطون فان الكتاب الرجعيين يأخذون ـ يأخذون انفاس الجماعات واشواطها وحماسها.. فهل الكتاب ـ اذا عدل خيارهم بشرارهم ـ يعطون ام يأخذون، هل هم خير ام شر ؟

ونجد هؤلاء الكتاب يختلفون في اتجاهاتهم الفكرية لاختلاف المجتمعات التي يقتاتون بها .. فالكتاب في المجتمعات المتأخرة كتاب متأخرون ، وهم في المجتمعات المتقدمة متطورون . وهذا في الاكثر .. اذن كأن الكتاب تابعون وكأنهم لا يعطون ارضهم الا ما يأخذونه منها ..

فالمجتمعات اذن تتغير من غير كتاب وهي التي تخلق صفات هؤلاء الكتاب ..

الحياة تتغير بقانون الاندفاع والاصطدام كما يتغير اتجاه السيول الهابطة من اعالي الجبال بهذا القانون نفسه !

ومن المحتمل ان يكون تطور الانسان اسرع واقوى لولا الكتاب والمعلمون الذين كان اكثرهم ضلالا عاجزين يدرسون الخوف من التطور ويستهلكون حوافز الحياة في مقاومة الحياة ويصرفون كل عملهم في تحويل طاقات الانسانية الى حرائق كبرى تشتعل في غابات التاريخ !

القاهرة **عبدالله علي القصيمي**

رسالة من القرية الشمالية

. . . . .

وبعده

فقد مسحت دمعتي ..
فانها ـ كما تقول ـ لا تليق بالرجال
وانني اشد بسمتي اليك
ولن اقول غير ما تريد
سأجعل الربيع بالسلال
وابعث السلال في البريد يا أخي اليك
ولن اقول انني « أريد »
فليتني اطيق ما اريد ـ ليتني اكون كالرجال
ومن هنا يا أخي ...
من الشمال .. حيث نحرث الجليد
وحيث ما أزال أزرع الذي تريد
من الحقول ـ حيث لا حقول في الشمال
انا اشد بسمتي اليك ...

*

الثلج عند بابنا .. وعند كل باب
وشمسنا تذوب في الضباب
والنحل يقضم الصقيع يا أخي فلا عسل
وليس في ظلامنا قبل
وليس في شتائنا قمر
فلا سمر ..
وكلنا نخاف ان نقول اننا بشر
فالذئب عند بابنا .. وعند كل باب
ما زال ينزع الحياة عن صغارنا .. فهم بلا ثياب
ونحن في « عز الشتاء » يا اخي
نكوم الصغار عند بابنا ، ونقنع الذئاب
ان لن تجوع .. سوف نزرع النساء بالصغار
وسوف يحمل القطار ..
جميع ما نغل من ثمر ..

*

اخي شددت بسمتي رسالة اليك
شددتها بالساعة التي تدق في الظلام
بالعقرب الذي يدور الف دورة ولا ينام
شددتها اليك من هنا
من كل نحلة تطير في حقولنا
من كل سروة هنا تقوم في الجبل ..

الموصل **يوسف الصائغ**